تشرين الأول ٢٠٢٥ / العدد ٢ – ص. ٢٢-٣٢

الرجاء، فضيلةٌ مسيحيّةٌ مكروهةٌ؟

الأب غي سركيس
Fr. Guy Sarkis

حائز درجة الدكتوراه في اللاهوت من الجامعة اليسوعيّة الغريغوريّة (روما). أستاذ متفرّغ في جامعة القدّيس يوسف في بيروت. من مؤلّفاته: «أُومن وأعترف. قراءة معاصرة في الإيمان المسيحيّ» (دار المشرق، ٢٠١٥. بالاشتراك مع الأب كابي هاشم)؛ «حوار الأديان والحوار الإسلاميّ المسيحيّ» (دار المشرق، ٢٠٢٠)؛ «إيمانٌ في حالة بحث» (دار المشرق، ٢٠٢٣)؛ «دروسٌ من الهرطقات» (دار المشرق، ٢٠٢٤)؛ «دليل المنهجيّة في أبحاث العلوم الإنسانيّة» (دار المشرق، ٢٠٢٤. بالاشتراك مع الدكتورة لينا إسكندر)؛ «إسلام التنوير أم التشدّد؟ قراءة في فكر مالك شبل» (الفارابي، ٢٠٢٤).

خلاصة

لا يتوافق اللاهوتيّون المسيحيّون وبعض الفلاسفة على مكانة «الرجاء». يرى فيها الفريقُ الأوّل فضيلةً إلهيّة عظمى تُشير إلى غلبة الله على محن الوجود وإلى الفرح في الحياة الأبديّة حيث «لا يكونُ بَعدُ مَوتٌ، ولا نَوْحٌ، ولا نَحيبٌ ولا وَجَعٌ، لأَنَّ الأوضاعَ الأُولى قد مَضَت» (رؤ ٢١، ٤)، أمّا الفريق الثاني فيراها وهمًا خادعًا أو تمسّكًا بأحلام لا واقع لها أو شكلًا من أشكال الاستسلام والقبول بالظلم بحجّة انتظار تحقيق ملكوت السماوات.
بمناسبة سنة الرجاء، تعرض هذه المقالةُ مواجهة آراء شخصيّتَيْن عصريَّتَيْن وازنتَيْن على طرفَيْ نقيض، هما البابا الأرجنتينيّ الراحل فرنسيس والفيلسوف الفرنسيّ أندريه كونت سبونفيل.

كلمات مفتاحيّة

الرجاء – البابا فرنسيس – الحياة الأبديّة – الالتزام – تحريف الفضائل

Abstract

Hope: A Despised Christian Virtue?

Christian theologians and some philosophers disagree on the status of “Hope.” The first group sees it as a great theological virtue that points to God’s victory over the trials of existence and to the joy of eternal life, where “death shall be no more, neither shall there be mourning, nor crying, nor pain anymore, for the former things have passed away” (Rev 21:4). The second group, however, views it as a deceptive illusion, a clinging to baseless dreams, or a form of surrender and acceptance of injustice under the pretext of awaiting the fulfillment of the Kingdom of Heaven. On the occasion of the Year of Hope, this article presents a confrontation between the views of two major contemporary figures on opposite sides: the Argentinian Pope Francis and the French philosopher André Comte-Sponville.

Keywords

Hope – Pope Francis – Eternal Life – Commitment – Perversion of Virtues

«شيئان يستطيعان قتلَ النفس،
اليأس والرجاء الزائف»
(أغسطينوس، العظة ٨٧)

في البدء كانت الإشكاليّة

يتوافق البشرُ عمومًا على القيم والفضائل، ولو تباينوا في تعريفها أو توصيفها أو في أبعاد مضمونها. جميعهم ناصروا كرامةَ الحياة، ولكن، باسمها، اعترض فريقٌ أوّلٌ على «القتل الرحيم» للتأكيد على قدْر حياة الإنسان الأنين، فيما عَدَّ فريقٌ ثانٍ الحقَّ في كون «الموت الرحيم» خيارًا يعكس نهايةً سعيدة. أمّا بشأن الرجاء، فالآراء متنازعةٌ حول منزلته، لا في تفسير هويّته أو توضيحها: أبصر فيه بعضُهم فضيلةً عظمى، وبعضهم الآخر عيبًا مُخجلًا[٦].

في القرن الثامن قبل الميلاد، كتب الشاعرُ اليونانيّ هسيودوس (٧٥٠ ق.م.–٦٥٠ ق.م.) قصيدةَ **الأعمال والأيّام** يروي فيها أسطورة «صندوق باندورا» (الفقرات ٤٢–١٠٥). خلق الإلهُ الأكبر زيوس باندورا، الأنثى الأولى، بهيئةٍ حسنة، انتقامًا من جسارة بروميثيوس، فأغرت إبيمثيوس، شقيق هذا الأخير، الذي ارتبط بها. عهد الإلهُ زيوس إليها بصندوقٍ وأوصاها بالإعراض عن الاطّلاع على مضمونه. دفعها فضولُها إلى عصيان الوصيّة، فانبعثت منه الشرورُ كلّها التي انتشرت بين البشر كالحزن والوجع والإرهاق والمرض والحرب والبؤس وما إليها، ولمّا أعادت إطباق الغطاءِ، استبقت الرجاءَ، أو بالأحرى الـ«إلبيس»[٧]، أيْ الانتظار أو الترقّب. تشعّبت آراء الفلاسفة بشأنِ العبرة من الرواية، لا سيّما عمّا إذا كانت الخاتمةُ تأكيدًا على حرمان البشر من معونةٍ اِستُبقيت في الوعاء[٨]، أم إشارةً إلى أذيّةٍ لم تتسرّب إلى الإنسان[٩]. لم يفصح الشاعر اليونانيّ عن مَرماه، واصفًا المرأة الأولى بـ«الشرّ الوسيم»[١٠]

(٦) راجع دكّاش، سليم (الأب). (٢٠١٤). أزمة مفهوم الرجاء: ماذا تقول الفلسفة والفكر المعاصر. **المشرق**، (٨٨/ ٢)، ٣٨٩–٣٩٩.

(٧) ἐλπίς, elpís.

(٨) Pape François. *Espère*, p. 335.

(٩) نيتشه، فريدريش. **إنسانيّ مفرط في إنسانيّته**، ص ٨٥.

(١٠) *καλὸν κακόν*, kalòn kakòn.

تأكيدًا أنّ مصير الإنسان يترجّح، منذ ذلك الحين، بين الولادة والموت، الفتوّة والشيخوخة، الشبع والجوع.

لا يزال هذا التباين القديم بشأن مقام الرجاء قائمًا في زمننا الراهن؛ ومثالًا على ذلك، تعرض هذه المقالةُ مواجهة آراء شخصيّتَيْن عصريَّتَيْن وازنتَيْن على طرفَيْ نقيض، هما البابا الأرجنتينيّ فرنسيس والفيلسوف الفرنسيّ أندريه كونت سبونفيل[١١].

يُعَدّ البابا فرنسيس، وهو من مواليد العام ١٩٣٦، أوّلَ أسقفٍ لروما ترعرع في جنوب القارة الأمريكيّة، وأوّل يسوعيّ. منذ العام ٢٠١٣، رغب في كنيسةٍ تتزيّن بالبساطة وتعتني بالفقراء والمهمّشين وبمن لا مأوى آمنًا لهم. اقتفى أثرَ القدّيس فرنسيس الأسيزيّ (١١٨١-١٢٢٦)، مُشدِّدًا على عيش الرحمة والتواضع، وأصدر رسائلَ عامّة وإرشادات رسوليّة مؤثّرة، كتلك التي تناولت العناية بالبيت المُشترك (٢٠١٥) للحثّ على الإيكولوجيا الشاملة (اجتماعيًّا وأخلاقيًّا وبيئيًّا وروحيًّا)، وتلك التي تناولت الأخوّة والصداقة الاجتماعيّة لتعزيز الترابط بين البشر[١٢].

في المقابل، اختار الشابُّ أندريه كونت سبونفيل، وهو من مواليد ١٩٥٢، الإلحادَ قناعةً مع المحافظة على امتنانه العميق للمسيحيّة، واصفًا نفسه بـ«الملحد الأمين». ألقى على الصعيد الجامعيّ محاضراتٍ في الفلسفة، وحرّر المؤلَّفات الموضحة لتوجّهاته، فأضحى وجهًا شهيرًا في الإعلام والصحافة. استند إلى إبيقورس (٣٤١ ق.م.-٢٧٠ ق.م.) والرواقيّين ومونتين (١٥٢٣-١٥٩٢) وسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) للدفاع عن فلسفةٍ ماديَّة، وعقلانيّة وإنسانويّة، وللدعوة إلى روحانيّة علمانيّة منفصلةٍ عن الإيمان بالله، ولكنّها متجذّرةٌ في القيم الأخلاقيّة والثقافيّة للديانات. اختلف المُحلِّلون بشأنه، فوصفه بعضُهم بالمفكّر الشعبويّ (دومينيك ليكور)، وآخرون بأعظم الفلاسفة الراهنين (ميشال ماير).

إنسانٌ هشٌّ يلتجئ إلى الأوهام والأصنام

يتشوّقُ الإنسانُ إلى عالَمٍ أفضل أو إلى حالةٍ مسرورة، وهذا التطلّع لازمه ولا يزال حتّى حاضرنا، وله دلالةٌ على واقعه العسير. توافق البابا الأرجنتينيّ والفيلسوف الفرنسيّ

(١١) إنّ الإطار الزمنيّ للمقالة هو اليوبيل العاديّ في العام ٢٠٢٥ الذي أعلنه البابا فرنسيس وأعطاه شعار «حجّاج الرجاء».

(١٢) للتوسّع في حياة البابا فرنسيس وفكره اللاهوتيّ، راجع سركيس، غي (الأب). (٢٠٢٥). **البابا فرنسيس، صاحب الفطنة والسذاجة**. بيروت: دار المشرق.

على توصيف هذا الواقع. ذكر الأوّلُ توقَ الإنسان إلى حياةٍ أفضل بسبب تأزّم معاناته من ظلمات الدرب وخوفه الغريزيّ من استحقاق الموت[١٣]، وأكّد الثاني انبثاق النشاط الفلسفيّ وتطوّره، طلبًا للسعادة في الحقّ[١٤]، بسبب واقع الإنسان الطامح إلى التحرّر من معتقلَيْ الأسى والموت[١٥]. توافق كلاهُما على أنّ الإنسان يسعى بكلّ جهدٍ إلى النجاة من مِحَن الوجود، ليس من خلال الانتصار عليها، بل باستنباط حلولٍ وهميّة يرتضي بها، لكنّهما افترقا جذريًّا في تحديد الخيار المُضلِّل.

في سياق عظاته، انتقد البابا الأصنامَ العقيمة والخادعة التي يطمئنّ إليها البشرُ بحثًا عن الأمان، أكان في المال والماديّات، أو في الروابط الاجتماعيّة، أو في الأيديولوجيّات الشعبويّة، أو في اللذّات العابرة التي تُقيِّدهم في متاهة الشهوات التي لا تُشبع عوزَ نفوسهم، واصفًا إيّاها بـ«أنواعٍ من الرجاء المزيَّف»[١٦] لأنّ اللاجئين إليها منحوها مصافَ الألوهة فيما هي جامدة لا حياة فيها. كذلك توسّع سبونفيل طويلًا في الوسائل التي يلجأ إليها الإنسانُ تهرّبًا من التحدّيات الحقيقيّة، راجيًا السعادةَ المفقودة، فإمّا أنْ يتألّم بعدم البلوغ إليها، وإمّا أنْ يعاني من الضجر الرتيب عند الحصول عليها[١٧]. يختار بعضُ الناس، تخلّصًا من الترجُّح بين الوجع والملل، القفزةَ الدينيّة أو «الأملَ المطلَق»[١٨]، أيْ الرجاء بالسعادة الحقيقيّة في الحياة ما بعد الموت، فلا يتعذّبون من غيابه ولا يُقاربون الضجرَ بسببه في هذه الدنيا، إذ يتوقّعونه بعد الموت، وهو رجاءٌ لا يستطيع صاحبُه إثباتَ حقيقته. وقد عرّفه سبونفيل بالعبارة الآتية: «هو رغبةٌ في ما لا نقتنيه، وفي ما نجهل إمكانيّة تحقيقه، وفي ما لا تتعلّق تلبيته بنا»[١٩]، أيْ هو رغبةٌ من دون لذّةٍ، ومن دون معرفة، ومن دون قدرة. وبالتالي، إنّ الرجاء، من جهةٍ أولى، يزرع الخوف في وِجدان الإنسان العاجز عن تحقيق رغبته المرجوّة – وقد استشهد بموقف سبينوزا الذي أكّد أنّ ما من رجاءٍ من دون خوف، وما من خوفٍ من دون رجاء[٢٠] –، ومن

(١٣) البابا فرنسيس، **تعليم**، ١٨/ ١/ ٢٠١٧.

(١٤) تتطلّب الحكمة، في رأي سبونفيل، التمسّك بالسعادة كغايةٍ، وبالحقيقة كقاعدةٍ أو دربٍ لبلوغها.

(١٥) Comte-Sponville A., *Le bonheur, désespérément*, p. 17.

(١٦) البابا فرنسيس، **تعليم**، ١١/ ١/ ٢٠١٧.

(١٧) Comte-Sponville A., *Le bonheur, désespérément*, p. 27.

(١٨) أعرض سبونفيل عن التفريق بين منطقَيْ الأمل والرجاء.

(١٩) Comte-Sponville A., *Le bonheur, désespérément*, p. 40.

(٢٠) سبينوزا، باروخ. **علم الأخلاق**، ص ١٩٢.

جهةٍ ثانية، يخدّر صاحبَه الذي يترقّب الانتهاء إلى السعادة في المستقبل البعيد بدلًا من أن يحياها في الزمن الراهن.

علاجان متناقضان لتشخيصٍ مشترك: الرجاء أو عدمه، هذا هو السؤال

وصفة البابا فرنسيس: الرجاء

الخيارُ الصائب، في خطابات البابا فرنسيس، هو الرجاء الذي، على عكس التفاؤل، «لا يخيِّبُ صاحبَه» (رو ٥: ٥)، فالمؤمنُ لا يستند إلى التحاليل والتوقّعات والضمانات البشريّة، بل يتأصّل في الثقة بالله الذي وعد في آنٍ بالقيامة وبعدم مفارقة تلاميذه عندما قال لهم: «ها أنا مَعكُم طَوالَ الأيّامِ، إلى انقِضاءِ الدَّهرِ» (مت ٢٨، ٢٠)[٢١].

يرتكز المسيحيُّ على الذاكرة، كما فعل التلميذان يوحنّا وأندراوس اللّذَان، بعد أنْ أقاما بدايةً مع يسوع (يو ١، ٣٥-٤٥)، تأثّرا بهذا اللقاء حتّى نهاية حياتهما. يترقَّبُ المسيحيّ قيامتَهُ على غرار قيامة يسوع. فالرجاءُ ليس أمنيةً طاهرة في شيءٍ يشتهي الإنسانُ وجودَه، بل إيقانٌ لا يتزعزع في السير نحو شيءٍ موجود. لذلك، تعبيرًا عن الثبات والأمان اللذَين يمنحهما الرجاءُ للمؤمن الذي يواجه الأمواجَ العاتية، آثر البابا فرنسيس اعتماد رمزِ «المرساة» المذكورة في الرسالة إلى العبرانيّين[٢٢].

الرجاءُ هو الحياة الأبديّة برفقة الله، ولذلك يحثّ المؤمنَ على النظر نحو المستقبل، لا ترقُّبًا للنتيجة، بل إدراكًا لنهايةٍ حتميّة، وهي غلبة الله على القِوى التدميريّة والمُفتِّتة والحاقدة وعلى الخطيئة والموت، على غرار الأنبياء الذين جاهروا، زمن النفي إلى بابل، للشعب المُحبَط، بالعودة الأكيدة إلى أرض الأجداد. هو ليس شعورًا، بل اعتمادٌ على يسوع، المصلوب والقائم، لتبصُّر النبتة في الزرع، والقيامة في الصليب، والحياة في الموت[٢٣]. فالمؤمن يواجهُ، في حاضره، المضايق والشدائد، كما يحزن للشرِّ الناتجِ من قراراته، لكنّه لا يشكو من وجعٍ عقيمٍ، بل يئنُّ من آلامِ المخاض توقًا إلى اللقاء المُرتجى بالله[٢٤]. وشهادةً

(٢١) البابا فرنسيس، **تعليم**، ٢٩/ ٣/ ٢٠١٧.

(٢٢) «وهذا الرّجاءُ لِنُفوسِنا مِرساةٌ أمينَةٌ متينَةٌ تخترِقُ الحِجابَ» (عب ٦، ١٩).

(٢٣) البابا فرنسيس، **تعليم**، ١٢/ ٤/ ٢٠١٧.

(٢٤) البابا فرنسيس، **تعليم**، ٢٢/ ٢/ ٢٠١٧.

منهم على انتصار الله على الظلمات، كان المسيحيّون يُشيّدون الكنائسَ لجهة الشرق، نحو الفجر الظافر على الليل.

يسير المؤمن المرتجي نحو لقاء الآب، متَّخذًا المسيح مرافقًا ومرشدًا، ولا يترجّل بين محطّةٍ وأخرى كسائحٍ يلتقط بُرَهًا خارجيّة وظرفيّة، بل كحاجٍّ يعيش اللحظات بملئها حتّى بلوغ اللحظة الدائمة[٢٥]؛ ولا يمشي ناظرًا إلى الأسفل، بل محدِّقًا في الآفاق، نحو وُجهته النهائيّة، أورشليم السماويّة، مسكن الله والناس (رؤ ٢١، ٣). تأكيدًا على ارتباطه بالمسيرة الدائمة، اختار البابا فرنسيس رمزًا ثانيًا للرجاء، هو الشراعُ الذي يتلقّى ريحَ الروحِ القدس للمضيّ بالسفينة قدمًا[٢٦].

أشار البابا في تعاليمه إلى شخصيّة إبراهيم واصفًا إيّاه بـ«أبينا في الرجاء»، الذي لم يعتمد على تحاليل أو توقّعاتٍ أو ضمانات، بل على الثقة بأنَّ الله «قادِرٌ على أنْ يَفِيَ بِوَعْدِه» (رو ٤، ٢١). وأشار أيضًا إلى مريم العذراء، «أمّ الرجاء»، فهي، ثقةً منها بالله، وافقت من دون تردّدٍ على دعوة الملاك، مجدِّدةً ثقتها عند أقدام المصلوب[٢٧].

يُنعمُ الرجاءُ على صاحبِه بخيراتٍ كثيرة، كالفرحِ والبسمة بسبب حضور الله الدائم في الأوقات الصالحة والطالحة؛ والصبرِ والتأنّي، انتظارًا لنضوج الثمار قبل جنيها، استبعادًا لذهنيّة الاستهلاك الفوريّ؛ وكالشجاعةِ المُطلقة إزاء الواقع المُعقَّد والثباتِ في مواجهة التحدّيات والمحن اقتناعًا بانتصار الله على الحقد والموت وتجاوزًا للاستدلالات العقليّة والحكمة البشريّة؛ واعتماد منطق ملكوت الله في خضمّ المجتمع، ليس بحثًا عن تموضعٍ جداليٍّ، بل أمانةً للإنجيل؛ والعقليّة الربيعيّة التي تدفع إلى تبصُّر الزهور في البُرعم، لا الأوراق الذابلة؛ والتَطلُّعِ إلى زمن الإتمام – أيْ ملكوت الله – الذي يتجاوز الزمنَ الأرضيّ؛ واليقظةِ ترقّبًا لمجيء السيّد الآتي[٢٨].

---

(٢٥) البابا فرنسيس، **الرسالة في اليوم العالميّ التاسع والثلاثين للشبيبة**، ف. ٣.

(٢٦) البابا فرنسيس، **تعليم**، ٣١/ ٥/ ٢٠١٧.

(٢٧) البابا فرنسيس، **تعليم**، ١٠/ ٥/ ٢٠١٧.

(٢٨) البابا فرنسيس، **تعليم**، ١٥/ ٣/ ٢٠١٧؛ ٢٨/ ١٢/ ٢٠١٦؛ ٢٨/ ٦/ ٢٠١٧؛ ٢٣/ ٨/ ٢٠١٧؛ ٢٢/ ٢/ ٢٠١٧؛ ١١/ ١٠/ ٢٠١٧؛ **الرسالة في اليوم العالميّ التاسع والثلاثين للشبيبة**، ف. ٣؛ **الرجاء لا يُخيِّب**، ف. ٤.

تُشدِّد هذه السِمات على أنّ الرجاء «فضيلةُ الصِغار»، الذين، بفضلِ قلوبهم اليانعة والمتواضعة، استبصروا حاجتهم لله[٢٩]، وفي طليعتهم الشهداء الذين سلكوا «نهجَ الرجاء»، فجاهروا بإيمانهم وبذلوا حياتَهم أمانةً للمسيح، ولم يخرّوا أمام وعيدٍ أو موت، بعد أنْ تأمّلوا المصلوب مُحوِّلًا الخطيئةَ إلى مغفرة، والخوفَ إلى ثقة، والموتَ إلى قيامة[٣٠].

وصفة سبونفيل: فقدان الرجاء

الخيارُ السديد، في كتابات سبونفيل، هو فقدانُ الرجاء. فالحقّ هو معيار الموقف، لذلك يتفوّق الحزنُ الحقيقيّ على السرور الزائف. والفرح الحقيقيّ، أو الفعليّ في اللغة الاصطلاحيّة الأرسطوطاليّة[٣١]، قائمٌ على فقدان الرجاء، ويتجذّر في رغبة المرء في ما يملك، في ما يفعل، أو في ما هو عليه، كأنْ يشرب ماءً عذبًا عندما يعطش[٣٢]. إنّ فاقدَ الرجاء، ينعتق من الحزن، من جهةٍ أولى، لأنّه لا يعود يترقّب شيئًا، ومن الخوف، من جهةٍ ثانية، لأنّه لا يعود يملك مقتنًى يمكن خسارته.

إنّ فاقدَ الرجاء ذو مبادرةٍ وإرادة، فهو على عكس المؤمن المرتجي، لا يتوق إلى غير الموجود والملموس، بل يرغب في ما يتعلّق به، عملًا بمشورة الفيلسوف الرومانيّ سينيكا (٤ ق.م.–٦٥) لصديقه: «إذا انكفأت عن الرجاء، تعلّمتَ الإرادة»[٣٣]. فالأبطال، في أثناء احتلال العدوّ للوطن، ليسوا من رجَوا التحرير، بل هم المقاوِمون الذين أقدموا على مقاومة المحتلّين، ولذلك رأى المفكّر الفرنسيّ فرنسوا رابليه (١٤٨٣–١٥٥٣) أنّ أشدّ عدوّ وأكثرهم شجاعةً هو مَن أقصى الرجاء سبيلًا[٣٤]. إنّ فاقدَ الرجاء يلتزم بلا خوف... وبلا رجاء.

أخطأ الفلاسفةُ في المزج بين الرغبة والرجاء، فالأولى ترتبط بالأزمنة وبالبشريّة كافّةً، فيما يرمي الثاني إلى المستقبل حصرًا ويخصّ المؤمنين فحسب[٣٥]. الرجاءُ مرضٌ ومخدِّرٌ يُبعد

(٢٩) البابا فرنسيس، **تعليم**، ٧/ ١٢/ ٢٠١٦.

(٣٠) البابا فرنسيس، **تعليم**، ١٢/ ٤/ ٢٠١٧.

(٣١) ميّز أرسطو الفعل بالإمكانيّة (*δύναμις*)، أي الاحتماليّ، من الفعل بالفعليّة (*ἐνέργεια*)، أي عندما تصبح الاحتماليّة حقيقيّة بالمعنى الكامل.

(٣٢) Comte-Sponville A., *Le bonheur, désespérément*, p. 31.

(٣٣) Comte-Sponville A., *Le bonheur, désespérément*, p. 41.

(٣٤) Comte-Sponville A., *Petit traité des grandes vertus*, p. 77.

(٣٥) كلُّ رجاءٍ هو رغبةٌ، ولكن ليست كلُّ رغبةٍ رجاءً.

صاحبَه عن اللحظة الحاضرة، فمَن انفصل عنه أقام في الحاضر، أيْ في الأبديّة الدائمة، عملًا بنصيحة الفيلسوف الهنديّ جِدّو كْرِيشْنامورْتِي (١٨٩٥-١٩٨٦) الذي شدّد على أنّ الحياة الفَرِحة تخلو من الرجاء، وتسكن في الحاضر والواقع(٣٦).

متبنِّيًا الفلسفة الرواقيّة والفلسفة السبينوزيّة، أكّد سبونفيل أنّ الإرادة، لا الرجاء، تحثّ على التصرّف؛ وعلى أنّ الحقيقة، لا الرجاء، تمنح الحريّة؛ وعلى أنّ الحبّ، لا الرجاء، يُمكِّن من العيش بفرح(٣٧).

يُنعِمُ فقدانُ الرجاء على صاحبِهِ بخيراتٍ كثيرة، كقبولِ الواقع الفوريّ والصامت والمُجرَّد من غايةٍ أو معنًى أو قيمةٍ أسقطها الإنسانُ عليه، والمصادقةِ على مواقف ثلاثة: الماديّةِ المرتبطة بالملموس، والآنيّةِ المرتبطة بالحاضر، والوِحدةِ المرتبطة بالذات؛ والطمأنينةِ التي لا تعرف خيبة؛ والفرحِ المُمكن بدلًا من فرحٍ وهميٍّ في المستقبل(٣٨).

ليس فقدانُ الرجاء مرادفًا للحزن أو العدميّة أو التخليّ أو الاستسلام، بل هو بهجةٌ وحكمةٌ وفرحٌ، لأنّ صاحبه لا يترقّب شيئًا ولا يشعر بالعوز أو بالحرمان، ولا يعرف خوفًا(٣٩). إنّ الذي لا يرجو شيئًا، لا ينقصه شيء.

موقفان من أجل هدفٍ واحد

> ”من دون رجاء، تتحوّل الأرضُ إلى جهنّم، ولذلك كتب دانتي على عتبة باب الجحيم العبارةَ الآتية: يا أيّها الداخلون، انفصلوا عن الرجاء“ (البابا فرنسيس).
>
> ”إنّ العبارة التي وضعها دانتي على عتبة باب الجحيم، أضعها أنا على مدخل الجنّة: يا أيّها الداخلون، انفصلوا عن الرجاء“ (سبونفيل).

إنّ التباين بشأنِ الرجاء انعكاسٌ لموقفٍ مختلفٍ في معنى الحياة، وقد تجلّى في مقاربتهما للحدث الواحد. في رأي البابا فرنسيس، إنّ رغبة العَدّاء في الانتهاء إلى خطّ الوصول تمنحه

(٣٦) Comte-Sponville A., *Dictionnaire philosophique*, p. 250.

(٣٧) Comte-Sponville A., *L'Esprit de l'athéisme*, p. 62.

(٣٨) Comte-Sponville A., *Traité du désespoir et de la béatitude*, p. 29.

(٣٩) Comte-Sponville A., *Le bonheur, désespérément*, p. 45.

الاندفاع إلى الأمام، وبالتالي يَحثُّهُ الهدفُ الأخير، أيْ الرجاءُ، على المثابرة في السباق[٤٠]، لذلك يُردِّدُ المرءُ، عند بلوغ المطاف، كلماتِ الرسول بولس: «جاهَدتُ جِهادًا حَسَنًا وأَتْمَمْتُ شَوطي وحافَظتُ على الإِيمان» (٢ طيم ٤، ٧). أمّا سبونفيل، فميّز الهدف من الغاية[٤١]: إذا حدّق العَدَّاءُ إلى الهدف، أي الوصول، انتابه القلقُ والنهم، ولكن إذا ركّز على الغاية، أيْ الالتذاذ بالركض، ابتهج بنشاطه، أيْ باللحظة الحاضرة، وبلغ بُغيتَه[٤٢]. وكذلك الأمر بالنسبة إلى استحقاق الموت. فقد رأى البابا فرنسيس أنّ الحياة الأبديّة بعد الموت تمنح الإنسان القدرةَ على تجاوز الشدائد، فيرجو عالَمًا من دون ألمٍ أو تنهّدات، فيه يأتي المسيح الرحيم ويمدّ يدَيْه للمؤمن الصبور لينتشله من بؤرة العذاب[٤٣]. أمّا سبونفيل، فأكّد أنّ الموت لا يحول دون استمتاع الإنسان بالتصرّف الجيّد والمجّانيّ[٤٤]، كأنْ يتنزّه من دون وُجهةٍ، ويعيش اللحظة الحاضرة كلحظةٍ أبديّة. إذا علّم المسيحيّون أنّ الرجاء يَبطُلُ في ملكوت الله لتدوم الحقيقةُ والمحبّة حصرًا، فإنّ سبونفيل عَدَّ الملكوتَ قائمًا في هذا الزمن، ولذلك وجب عيش المحبّة الآن، على مثال السامريّ الصالح، غير المُنتسِب إلى اليهوديّة أو المسيحيّة، الذي ترأّف وأقدم على فعل الخير من دون تردّد أو انتظار مكافأة[٤٥]. فالمسيح، كما قال توما الأكوينيّ (١٢٢٥-١٢٧٤)، لم يؤمن ولم يرجُ، بل أحبّ حبًّا تامًّا[٤٦].

كانت نتيجةُ المقارنة متوقَّعة، ولكن كانت الغايةُ التنبّهَ لعدم التوافق بشأنِ كون الرجاء فضيلةً كما يظنّ أغلبُ المسيحيّين. يعود التباعدُ إلى عوامل عديدة، أهمّها إمكانيّة تحريف قيمةٍ حسنة. فالمسؤولون الكنسيّون التجأوا أحيانًا - وما زالوا - إلى فضيلة الرجاء وأخذوها ذريعةً للقضاء على مَرامِ الناس في تصحيح واقعٍ شاذ، فحثّوهم على الامتثال لظلم جبابرة هذا العالَم بحجّة أنّ العدالة ستتحقَّقُ في ملكوتِ الله فحسب، وأنَّ الكمالَ ليسَ من هذا الدهرِ. كَمْ من بشرٍ عانوا الشقاءَ ولم يجرؤوا على مواجهةِ طاغيةٍ يحكُمُ باسم الله! كَمْ من ثوراتٍ خُنِقَت بحجّةِ أنّ الاستبدادَ أفضلُ من الفوضى! كَمْ من مؤمنينَ رَهَنُوا حياتَهم على موقفِ التفرُّجِ بَدَلًا

(٤٠) البابا فرنسيس، **الرسالة في اليوم العالميّ التاسع والثلاثين للشبيبة**، ف. ١.

(٤١) *Σκοπός, Τέλος* / Skopos, Telos.

(٤٢) Comte-Sponville A., *Que le meilleur gagne !*, p. 37-39.

(٤٣) البابا فرنسيس، **الرجاء لا يُخيِّب**، ف. ١٩.

(٤٤) Comte-Sponville A., « Entretien avec André Comte-Sponville », p. 24.

(٤٥) Comte-Sponville A., *L'Esprit de l'athéisme*, p. 65.

(٤٦) Comte-Sponville A., *L'Esprit de l'athéisme*, p. 68.

من الالتزام! فالإنسانُ قادرٌ على تشويه الحقّ إذا عدل عن الغاية، وهي كرامة الإنسان.

ليست المفارقةُ بين موقفَيْ البابا فرنسيس والفيلسوف سبونفيل مُجابهةً بين خيرٍ وشرٍّ، فالاثنان يلتمسان سعادةَ البشر، وإذا كانت الغايةُ واحدة فهذا يعني أنّ الرأيَيْن ليسا متضادَّيْن، بل مُصوِّبان الواحد للآخر. فهل يتوجّب على المرء إذًا اختيار مسارٍ من الاثنَيْن؟ قد لا يستطيعُ الإنسانُ المُلحِدُ الاستجابة لدعوة البابا فرنسيس، لأنّ الإيمان لا ينبع من خيارٍ مستقلٍّ عن استقبال النعمة، أمّا المسيحيُّ فقادرٌ على ملاقاة وجهة نظر الفيلسوف الفرنسيّ، فيرنو إلى المُستقبل ويعيش حاضرَه في آن، عملًا بدعوة المسيح الذي طلب من تلاميذه أنْ يعملوا هذا من دون أنْ يُهملوا ذاك (را. مت ٢٣، ٢٣). فالإيمانُ المسيحيّ قائمٌ على التباينات، وينحرف صاحبُهُ عن الحقّ، من دون أن يكون قد استند إلى مبدأ خطأ بالضرورة، بل إذا رفع الحقيقة الجزئيّة إلى مقام الحقيقة المطلقة[٤٧]، فالله واحدٌ وثالوثٌ، عادلٌ ورحيمٌ، والمسيحُ إلهٌ وإنسانٌ، ومريم ابنة الناصرة عذراء ووالدة. إذا عُزِلَ الرجاءُ عن الالتزام في الزمن، أصبح حُلمًا غير مرتبط بالواقع، وسهرًا يخلو من اليقظة، ومثاليّاتٍ من دون إنجازات. فالمؤمنُ المُتمسِّك بالرجاء وحدَهُ، يعيشُ في المستقبَلِ، غافلًا عن جمالِ الحاضر، ويقترف الخطيئة بالإهمال.

يُقلقِلُ موقفُ سبونفيل سكينةَ المؤمن المسيحيّ إذ يُذكّره بأنّ الحقيقة المبتورة أكثر بشاعةً وخطرًا من الكذب. لا ينحاز هذا الأخير إلى خيارٍ واحد، بل يتمسّك بالاثنين معًا ويحرص على الجمع بينهما، فيشدِّد على الرجاء في السماوات وعلى الالتزام الكلّيّ بخيرات هذه الدنيا، يتوق إلى الغاية البعيدة ويلتذُّ بالهدف القريب، منتظرًا ملاقاة المسيح وجهًا لوجه (١ قور ١٣، ١٢)، ويخدمه في الجائع والعطشان والغريب والعريان والمريض والسجين (مت ٢٥، ٣١-٤٥)، مُحتَجًّا على حاضرٍ يحجب الآفاق، وعلى غدٍ يسرق اللحظةَ المَعيشة.

توافق الاثنان على استمرار الرجاء في حياة البشر. فأكّد البابا فرنسيس رداءة الحياة إذا اندثر فيها الرجاء، فهو الدواء الذي يسنِدها ويحميها ويُحافظ عليها، وأدرك الفيلسوفُ سبونفيل أنّ الحكمةَ المَرجوَّة مثالٌ لن يبلغه الإنسانُ الذي، بسبب ترجُّحه بين الرغبة والمحدوديّة، رضي بالرجاء رفيقًا له، ... ثم أضاف مُشكِّكًا: «أمّا السؤال: هل الرجاءُ فضيلةٌ؟»[٤٨].

(٤٧) سركيس، غي. **دروسٌ من الهرطقات**، ١٨٦.

(٤٨) Comte-Sponville A., « Réponses », p. 125.

المراجع

– البابا فرنسيس، **تعاليم يوم الأربعاء**، ٧/ ١١٢/ ٢٠١٦ – ٢٨/ ١٠/ ٢٠١٧.

– البابا فرنسيس، **الرجاء لا يُخيِّب. مرسوم الدعوة إلى اليوبيل العاديّ لسنة ٢٠٢٥**، ٢٠٢٤.

– البابا فرنسيس، **الرسالة في اليوم العالميّ التاسع والثلاثين للشبيبة**، ٢٤/ ١١/ ٢٠٢٤.

– PAPE FRANÇOIS. (2025). *Espère*, Albin Michel.

– COMTE-SPONVILLE, André. (1995). *Petit traité des grandes vertus*, PUF.

– _____. (2000). *Le bonheur, désespérément*, Pleins Feux.

– _____. (2006). *L'Esprit de l'athéisme*, Albin Michel.

– _____. (2011). *Traité du désespoir et de la béatitude*, Quadrige.

– _____. (2011). « Réponses », *Revue internationale de philosophie, (258/4)*, 105-132.

– _____. (2013). *Dictionnaire philosophique*, PUF, 2013.

– _____. (2021). *Que le meilleur gagne !* Robert Laffont.

– _____. (2021). « Entretien avec André Comte-Sponville », *Psychiatrie, Sciences humaines, Neurosciences* (19/2), p. 21 -37.

– دكّاش، سليم (الأب)، (٢٠١٤). أزمة مفهوم الرجاء: ماذا تقول الفلسفة والفكر المعاصر، **مجلّة المشرق** (٨٨/ ٢)، ٣٨٩–٣٩٩.

– سبينوزا، باروخ. (٢٠٠٩). **علم الأخلاق**، بيروت: المنظّمة العربيّة للترجمة.

– سركيس، غي (الأب). (٢٠٢٤). **دروسٌ من الهرطقات**، بيروت: دار المشرق.

– نيتشه، فريدريش. (٢٠١٤). **إنسانيّ مفرط في إنسانيّته ك ١**، كولونيا: منشورات الجمل.

– هسيودوس، (١٩٩٦). **قصيدة الأعمال والأيّام**، القاهرة: مكتبة الأسرة.